من كتب الشرق والغرب

أغانى شيراز

نظم حافظ الشيرازى وترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربى

عشت أياما جميلة مع « حافظ » أتاحها لى ولقراء العربية الدكتور ابراهيم أمين . لست أدرى كيف أشكره ؛ فهذه الساعات الحلوة التى أتاحها لى لا تقدر بثمن . وكيف تكافئ من ينقلك فى هذه الأيام الثقيلة الصاخبة الكئيبة ، إلى جو طليق هادئ رفاف ، تشيع فيه الأنداء والأضواء ، وترف فيه الانسام والأصداء ، ويستقبلك بالطلاقة والبشر والايناس ؟

لقد أخلدت — مع حافظ — إلى الغناء العذب بروح صادقة ، لا تكدرها شوائب الحياة ، ولا هموم العيش ، ولا أحقاد الناس ، ولا تفسدها كذلك غواشى القلق ، ولا هموم الفكر ، ولا الضرب فى بيداء المجهول .

كأس من الخمر ، ووجه جميل ، ورفاق مسعدون ، وطبيعة باسمة . وعلى الدنيا السلام !

— أى شىء أجل من رفقة الأحباب ، والتمتع باللهو والرياض والربيع الجميل ؟
فأين الساقى ؟ قل له : ما هذا الانتظار الطويل ؟
— واعتبر ما يتهيأ لك من طيب الوقت فرصة عزيزة وغنيمة كبيرة .
فلا علم لأحد بما تكون عليه نهاية الأمور .

وهذه الأغانى هى المعروفة بغزليات حافظ ، وهى أربعمائة وست وتسعون مقطوعة ، كل منها يسمى «غزلا» . [والغزل أو الغزلية فى الشعر الفارسى عبارة عن منظومة قصيرة ، تتراوح بين سبعة أبيات وخمسة عشر بيتاً غالباً . وموضوعه الغزل أكثر الاحيان ، ويكون أحياناً غرضاً آخر من أغراض الشعر . ويلتزم الشاعر ذكر لقبه الشعرى ، أو « تخلصه » — كما يقول الفرس والترك — فى آخر بيت من الغزل] (١)

وقد استغرقت ترجمة غزليات حافظ والفهارس الدقيقة الكاملة عن طبعاتها وترجماتها

---

(١) من مقال للدكتور عبد الوهاب عزام عن « أوزان الشعر وقوافيه » اقتبسه المترجم فى كتابه .

وشروحها مجلدين ضخمين ، تقرب صفحاتهما من الستمائة . وصدر الأول فى العام الماضى والثانى فى هذا العام. وقد تضمن الجزء الأول مقدمة بقلم الأستاذ العميد الدكتور طه حسين بك بارك فيها هذا الجهد الضخم الذى بذله الدكتور الشواربى . وفيها يقول :

« . . . وهذه طرفة أخرى نفيسة رائعة ، يسعدنى أن أطرف بها قراء العربية ؛ لأنها ستمتعهم من جهة ، ولأنها ستزيد ثروة الأدب العربى من جهة أخرى ، ولأنها بعد ذلك ستثير فى نفوس الكثيرين منهم ألوانا من التفكير المنتج ، وفنوناً من الشعور الخصب ، ولعلها أن تفتح لبعض الشباب أبواباً فى الحس والشعور والتفكير لم تفتح لهم من قبل ؟

وهذه نبوءة تصح من غير شك لو خلى بين الأدباء الشبان خاصة وهذه المجموعة من شعر حافظ . فان قلة النسخ المطبوعة منها ، وارتفاع ثمنها بالقياس إلى مقدرة هؤلاء الشبان ، قد يجعلان الانتفاع بها محدوداً فى الوقت الذى يجب أن تكون فى متناول الأيدى جميعاً .

إن هذه الأغانى تجىء فى وقتها المناسب — والشعر العربى يعانى أزمة يحتاج فيها إلى مثل هذا الزاد — فلقد آن للشعر أن يكون غناء بحتا ، بعد ما طوح بنفسه فى مجالات لم تعد له ، أو لم يعد يبدو فيها بأجل ألوانه . . . طوح بنفسه فى مجال الفلسفة ، وفى لجج الفكر ؛ كما أخذ يطوح بنفسه كذلك فى مجال القصة والمسرحية وما إليها ، بعد أن عادت روح العصر لا تستسيغ القصة ولا المسرحية الشعرية .

والموجة الفكرية الفلسفية فى الشعر العربى الحديث ، كانت ضرورة فى وقت من الأوقات ؛ لأنها كانت رد فعل طبيعى لموجة أخرى سبقتها : موجة الأسلوب اللفظى ، أو الأسلوب الايقاعى . فكانت مهمة الموجة الجديدة أن تدخل القصد والمعنى إلى الأدب ، وأن تمد الشعر بروافد نفسية وفكرية حية ، لتنقذه من ذلك العبث بالمحسنات البديعية الجوفاء ، ومن الايقاع الموسيقى الذى لا يحمل وراءه حياة ولا جداً . وقد استطاعت أن تحيى الشعر العربى وتجدد مجده ، وتزيد عليه متاعا قيما من صور الحالات النفسية الصادقة ، يكاد يعدل عندى ماضى الشعر العربى كله ويربى عليه أيضاً ، ولكنها وقفت بالشعر الحديث حيث لا يجوز الوقوف ، قصت من أجنحته المرفرفة ، وغضت من غنائيته المنغمة ، وأقلت فيه من السبحات والومضات ، وجعلت عنصر الوعى الفكرى بارزاً فيه .

والشعر يجب أن يدع للنثر الفنى مجاله بعد ما نضج هذا النثر نهائيا وأصبح قادراً على هذه المجالات ، ثم ينطلق هو مرفرفاً لا تثقله هموم الفكر ، ولا تقيده مشاكل الفلسفة . يجب ان ينطلق صرخات عميقة قوية ، وأشجاناً روحية خالصة ، وأشواقاً مرفرفة وضيئة ، وأحلاماً مهومة طائرة ، وإشراقات وجدانية لطيفة ، وسبحات علوية شفيفة . وفرحات رفافة طليقة .

يجب أن يكون تعبيراً عن لحظات الاشراق والتهويم ولحظات التوهج والانطلاق فى النفس الانسانية ؛ تلك اللحظات التى يستحيل فيها الشاعر روحاً أكثر ما تكون تجرداً ، أو حساً أشد ما يكون توهجاً . تلك اللحظات التى ينطلق فيها التعبير كأنما يكون نفسه — وإن كان الوعى يعمل فيه — وهى لحظات يعرف مثلها كل شاعر ملهم فى حياته الطويلة . وما عداها من اللحظات والحالات فغير جدير بالشعر فى اعتقادى ، أو إنه من الدرجة الثانية أو الثالثة فى حياة الشاعر الفنية !

وأحسب أنه قد آن الأوان لتنحسر الموجة الفكرية الفلسفية ، تاركة للشعر غنائيته وبساطته ورفرفته ، كيما يتأدى إلى الحس بأشواقه وأحلامه ، وبصوره وظلاله ، مثلما تتأدى الموسيقى

الطليقة ، والصور الفنية الموحية ، على قدر ما تسمح طبيعة الشعر ، وطريقة تناوله لموضوعه ، وفيها اختلاف لا بد منه ، عن طريقة الموسيقى وطريقة التصوير فى الأداء .

و « أغانى شيراز » تأتى فى حينها المناسب لتساعد على انحسار الموجة الفكرية عن الشعر الحديث . وقد لا تلبى هذه الأغانى كل مطالب الشعر فى هذه الفترة ؛ لأن الحس يغلب عليها ، والأشواق الروحية الخالصة تقل فيها — على الرغم من طابعها الصوفى — ولكنها على كل حال تزيد من رصيد الغناء فى الشعر العربى زيادة لها قيمتها . وحسبها أنها تجعل الشعر غناء خالصاً لا تبهظه أثقال الفلسفة إلا حيث تعرض فى سرعة وتختفى سريعاً ، ولا تبرده ثلوج الفكر — وإن كان فيها على ما سيجىء — لعب بالألفاظ والصور والمعانى ، ولكنه لعب لطيف حلو لا يغض من حلاوة الغناء الطليق .

ثم إن لها عندى مزية أخرى :

فقارئ هذه الأغانى يستروح فيها عطر الشرق البعيد ، وبساطته ومرحه ، وغيبيته وتصوفه ، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى استرواح هذا كله ، حين تغمرنا موجة العقلية الغربية ، وهى موجة قوية طاغية ، لا نجد لها فى حاضرنا الروحى كفاء .

وفى أغانى حافظ ، كما فى رباعيات الخيام الفارسيين ، وكذلك فى اشعار تاجور الهندى — على بعدما بينهم فى الاحساس والاتجاه — ذلك الروح الشرق العميق ، الذى يستطيع اليوم أن يسعفنا ويحفظ اتزاننا الشعورى فى وجه التيار .

وهـذا هو ما أعنيه باسترواح الشرق البعيد ؛ فليس نموذجاً واحداً ما أريد ، ولكنها نماذج شتى ، تجمعها سمات أصيلة ، تعبر عن الموروث والمذخور فى نفس الشرق من رصيد .

والآن فالى غزليات حافظ أو أغانى شيراز :

إنها لعجيبة مدهشـة تلك التى تجعل القارئ يتابع حافظاً فى لذة وارتياح ، فلا يمل ولا يسأم ذلك التكرار الذى لا ينتهى فى الغزليات ، وذلك اللعب بالنكات اللفظية والتعبيرية التى تزحم الديوان ، والتى كانت نظائرها فى شعر البديعيين فى اللغة العربية كفيلة باسقاط هـذا الشعر ، وكفيلة كذلك بالسأم والضيق إلى حد الاختناق(١) .

ولكن حافظا لا يدعك تسـأم أو تمل ، وهو يكرر ويكرر إلى غير ما نهاية : أوصاف طرة الحبيب التى هى تارة شباك لصيد المحبين ، أو سلسلة يأوى إليها العشـاق راضين ؛ وتارة نافجة مسـك يفوح منها الطيب ، أو صولجان من العنبر يسحبه الحبيب على القمر المشرق فى وجهه الجميل . . . ثم أوصاف غمازته التى هى بئر ، وعينه التى هى نرجسة ، وحاجبه الذى هو قوس أو ركن تتعلق به عيون العباد ، وقامته التى هى شـجرة سرو أو شمشاد . . . إلى آخر هذا الحشد المكرور من التشبيهات .

كذلك لا يدعك تسأم أو تمل ، وهو يحشد فى غزلياته ما لا يحصى من الاشارات إلى أحداث التاريخ ، وسير العشاق ، وقصص القرآن والكتب المقدسة ، والأساطير ، وطبائع الطير والحيوان ، واصطلاحات الفلك والهندسة والطب ، وإشارات التصوف ورموز أهل الطريق !

---

(١) أرجح كثيراً أن يكون حافظ شـديد التأثر بهؤلاء البديعيين وبخاصة اذا ذكرنا أنه عاش فى القرن الثامن .

تلك العجيبة المدهشة هى روح حافظ الحلوة ، التى تطالعك فى غزلياته المكرورة ؛ وهى روح أنيسة لطيفة عذبة ، تشيع فى محياك الابتسامة الراضية عن هذا الصديق الودود ، الذى لا تملك إلا أن تنصت له وتهش لحديثه ، ولو راح « يخرف » فى بعض الأحيان !

وأنا أعنى كلمة « يخرف » هنا . فحافظ فى كثير من الأحيان — إن لم يكن فى جميع الأحيان — يطالعك بوجه « درويش » . « يخطرف » فى حديثه ؛ ويلقى كلمة من هنا وكلمة من هناك ، حتى ليخيل إليك فى بعض الأحيان أنه لا توجد فى « الظاهر » رابطة بين الاشارات والايماءات ؛ إنما تربطها فى « الباطن » رؤى درويش متصوف ، تطالعه من وراء « الغيب » فيرمز لها ولا يبين !

ولكن هذا لا يعنى التفكك فى أسلوب حافظ الشعرى . فوراء هذه الاشارات والايماءات جو موحد تعيش فيه الغزلية الواحدة ، بل تعيش فيه الغزليات جميعاً ، ذلك هو جو «الشهود» إذا استعرنا اصطلاحات الصوفية . وما لنا ألا نستعير هذه الاصطلاحات وحافظ فى غزلياته يتبع « طريق » الصوفية فى التعبير ، وطبيعتهم فى الشعور ؟

وجو « الشهود » هذا هو الذى يجعلك تقبل من حافظ إيماءاته وإشاراته المتناثرة ؛ فكلها أصداء لطيفة . لانفعالات شاردة ، تتوالى على حس مرهف ، فى «حضرة» الحبيب ! ويربطها جميعا ذلك الرباط اللطيف الدقيق .

خذ مثلا هذه الغزليه :

— إن شفة الحبيب ياقوتة ظمأى إلى الدماء
أنا من أجل رؤيتها أضحى بالروح . وهذا هو عملى وشغلى الشاغل .
— وهلا يخجل من تلك العين المكحولة بالسواد ، وهذه الأهداب الطويلة المدببة
من رأى كيف يسلب الحبيب القلوب ، وهو مع ذلك ينكر أحوالى ؟ !
— فيا حادى العيس ! لا تحمل رحلى إلى الباب ، فعلى قمة هذه الجادة يتشعب الطريق الرئيسى إلى منزل حبيبى وداره
— وأنا عبد لحظى وطالعى ، فقد تملكنى فى قحط الوفاء
عشق هذه « النورية » المحمورة الرأس ...!
— وقارورة عطر الورد ، وذؤابة الحبيب التى تفوح بالعبير
ما فيض لشمة واحدة من روائح « عطارى » الذكية
— فلا تطردنى أيها البستانى عن بابك ؛ فأنا كالنسيم
وماء روضتك من دموعى الحمراء التى تشبه زهرات الرمان
— ولقد أمرت لى عين الحبيب بشربة من القند ممزوجة بماء الورد من شفته الندية
وكانت عينه الشبيهة بالنرجسة الغضة هى الطبيب لقلبى العليل
— وحبيبى « الحلو الكلام » ، « النادر الأقوال »
هو الذى علم « حافظاً » الدقائق فى إنشاد « الغزل »

فهى انتقالات وقفزات دائمة . ولكنك ترقبها كما ترقب الطائر الخفيف يقفز من فنن إلى فنن ، ويحلق هنا وينقض هناك ، فى رشاقة ولطف وإغراء !

وليست كل الغزليات من هـذا القبيل ، ولـكن هذه السمة واضحة فيها حتى لو كان فيها التسلسل . لأن طابع « الدرويش » الذى يوزع الكلمات والإشارات والايماءات هو الطابع العام . وهذه غزلية أخرى تصور ما أعنيه :

— مبعثر الخصلات ، محمر الوجنات ، ضاحك الأسنان ، تلعب به الخمر . سكران ممزق القميص(١) ، يتغنى بالألحان ، فى يده إبريق من بنت الحان !
— عيناه كأنهما زهرات النرجس توحى بالعربدة ، وشفتاه الرقيقتان ساحرتان أقبل فى نصف الليل أمس ، فجلس إلى وسادتى بضع ثوان !
— ثم أدار رأسه إلى أذنى وهمس فيها لحناً حزيناً
قائلا : « يا عاشق القديم ، هل أنت نائم نعسان ؟ !
— والعاشق الذى يعطونه مثل هذه الخمر الليلية
يكفر بالعشق إذا لم يصبح عابداً للخمر والدنان !
— فاذهب — أيها الزاهد — ولا تهزأ بمن يتجرعون الثمالة
فانهم لم يعطونا غير هذه التحفة منذ أقدم الأزمان !.
— ولقد شربنا ما صبه الساقى فى كئوسنا
سواء كانت خمره من خمور العربدة أو من خمور الفراديس والحنان !
— وابتسامة كأس الشراب ، وطرة الحبيب المجعدة الملتفة
ما أكثر ما كسرتا من توبات مثل توبتك أيها « الحافظ » الولهان !

فهنـا التسلسل فى المعنى إلى حد ما . ولـكنها حافلة بالايماءات والاشارات المتناثرة فى شتى الأغراض .

أما التكرار الذى أشرت إليه آنفاً فهو ملحوظ بوفرة فى هذه الغزليات ، ولـكنه كما قلت لا يبعث مللا ولا سآمة ، وهذا هو العجيب ...

ولقد سبق حافظاً شاعر فارسى آخر ، دائب التكرار أيضاً لمقاطعه ولمعانيه ، دون ان يسأم هو الآخر أو يمل ... ذلك هو الخيام .

ولـكنك هناك واجد حرارة لاذعة ، وأسى عميقا ، ومعنى نفسياً ضخما . وهذه كلها قد تنسيك الترجيع والتكرار فى « الرباعيات » ولا نظير لها هنا فى « الغزليات » التى تمضى لطيفة شفيفة ، لا يفارقها روح الدعابة ولا خفة الروح ، حتى فى مواقف الحرقة والأسى . . . فلم يبق إلا أن فى روح حافظ تلك الجاذبيـة اللطيفة التى تدفع السأم والملالة ، بل تبث النشاط والخفة والأنس فى جو الغزليات .

وعلى ذكر الخيام فان هنـاك اشتراكا فى الظاهر فى خصائص الشاعرين واتجاههما ، ولـكن ما أبعد ما بينهما فى الحقيقة .

وحينما تروعك فى « الرباعيات » تلك اللهفة المحرقة لاستجلاء السر الأعظم الذى أوصدت دونه الأبواب ، فراح « الخيام » يدقها دقاً عنيفاً متواصلا ، حتى كلت يداه وأدركه الإعياء وغشاه الملال ،

---

(١) لعلها اشارة الى يوسف وقميصه المقدود .

فجلس يغرق اشجانه فى كأس من الشراب ، ويتسلى هنيهة عن ذلك السر المحجب الذى يكرثه ويعنيه ، ريثما يعاود الدق على الابواب من جديد على هذا النحوالشجى المرير :

آحس فى نفسى دبيب الفناء ... ولم اصب فى العيش إلا الشقاء
يا حسرتا إن حان حينى ولم ... يتح لفكرى حل لغز القضاء

لبست ثوب العمر لم آستشر ... وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضوه برغمى ولم ... أدرك لماذا جئت أين المقر ؟

اشرب فشواك التراب المهيل ... بلا حبيب مؤنس او خليل
وانشق عبير العيش فى فجره ... فليس يزهو الورد بعد الذبول

كم آلم الدهر فؤاداً طعين ... وأسلم الروح ظعين حزين
وليس ممن فاتنا عائد ... أسأله عن حالة الراحلين

لم أشرب الخمر ابتغاء الطرب ... ولا دعتنى قلة فى الادب
لكن إحساسى نزاعاً إلى ... إطلاق نفسى كان كل السبب

أفنيت عمرى فى اكتناه القضاء ... وكشف ما يحجبه فى الخفاء
فلم أجد أسراره ، وانقضى ... عمرى وأحسست دبيب الفناء (١)

حينما تروعك من « الخيام » هذه اللهفة العارمة ، وذلك الشجى الكظيم ، وترى الكأس فى يده يحاول أن يغرق فيها أشجانه بعد أن كلت يداه من دق الأبواب . . فانظر تر « حافظاً » فى طريقه إلى دار الخمار فى وداعة واستبشار ، لا ليغرق هما ولا ليسكت حيرة ، بل لينتشى ويشمل ويتملى محاسن الحبيب ! ولقد يئس هو الآخر من استجلاء سر الغيب ، ولكن هذا لا يكرثه ولا يعنيه ، فالخلق للخالق ، والسر عنقاء ليست صيداً لأحد . فهات كئوسك أيها الخمار لعلنا نرى فى الكأس وجه الحبيب ، وربما تفتحت لنا فيها أسرار الغيوب ، ورأينا ما مضى فيها وما سيأتى ، كمرآة الاسكندر التى كانت تكشف البعيد كالقريب !

— الآن ونسيم الجنة يهب من البستان
إلى بالخمر المفرحة وبالحوراء التى قامتها كحور الجنان
— ولم لا يفخر السائل المسكين بأنه أضحى اليوم سلطان الزمان
وقد عقد له السحاب خيامه ، وبسطت له الحقول مائدة الخوان ؟!
— وهذا الربيع الجميل يحكى لى حكايته الجميلة
فيقول : « ليس عاقلا من يفضل النسيئة ويترك النقد
— فعمر قلبك بالشراب ، فلا هم لهذه الدنيا الخربة
إلا أن تحيل ترابنا إلى لبنات وآجرات » . . . الخ

---

(١) من ترجمة وافى للرباعيات .

وحتى عند ما يتحد الموضوع وطريقة التعبير بينهما وكثيراً ما يقع هذا (١) فانك تلمح الفارق بين القلق العميق الأليم فى الخيام ، والراحة اللذيذة السالية فى حافظ ، الذى لا ينسى أبداً تورياته وجناساته ولعبه الجميل !

يقول الخيام فى رباعياته :

سمعت صوتاً هاتفا فى السحر — نادى من الحان : غفاة البشر
هبوا املئوا كأس الطلى قبل أن — تغم كأس العمر كف القدر

أفق وصب الخمر انعم بها — واكشف خبايا النفس من حجبها
ورو أوصالى بها قبلما — يصاغ دن الخمر من تربها

أين النديم السمح أين الصبوح — فقد أمض الهم قلبى الجريح
ثلاثة هن أحب المنى — خمر وأنغام ووجه صبيح

ويقول حافظ فى غزلياته :

— ايها الساقى لقد أذن الصبح فاملأ القدح بالشراب
وتعجل ، فدورة الفلك ليس فيها ريث واتئاد
— وقبلما يتحطم هذا العالم الفانى ويتخرب
أسرع إلى تحطيمى وتخريبى بكأس شرابك الملتهب المتقد
— ولقد طلعت شمس الخمر من مشرق كأسك
فاذا أردت صفاء العيش ، فقم من غفلتك وادفع النعاس من رأسك
— وقبلما يأخذ الفلك طينتنا ويصنع منها الكيزان والاكواب
تنبه واملأ صحاف رءوسنا بالخمر والشراب . . . الخ

وحافظ — كما ترى — فى نشوة بالخمر وبالجمال فى الطبيعة وفى الوجوه الحسان . وجمال الطبيعة دائماً فى خاطره وهو يتغزل بالوجوه الجميلة . والنشوة بخمر الجمال دائما فى حسه وهو يشمل بخمر الدنان . والدنيا كلها ربيع دائم باسم ، لا تذبل زهراته الجميلة ، ولا تجف أعواده الندية . والحب جميل حتى مع الهجر والفراق ، والتأوهات والدموع لذيذة كالقبل والعناق «فيارب لاتجعل العالم خالياً من أنين العاشقين . فأصداء أنينهم بهيجة حسنة الترجيع والتلحين» والحبيب معبود يعبد واصلا راضياً ويعبد هاجراً قالياً . وحافظ عابد صوفى يتمسح بالاعتاب ، ويصدع بالاشارة ، ويمرغ خديه بالتراب — كما يقول — فى جذل وانجذاب !

وأنا أعنى كلمة « انجذاب » هذه ؛ فحبه وخمره يستوى أن يكونا فى الأرض أو فى السماء . فهو ينتقل من هذه إلى تلك فى رشاقة وخفة وفى تهويمة ناعسة ، فلاتدرى أيهما هواه . وخمره

(١) الخيام سابق فقد عاش فى القرن الرابع ومطلع الخامس .

نواسية أو إلهية . فهو فى « الحان » كما فى « الخانقاه » درويش مجذوب ، تمل بالشراب ، أيا كان كنه الشراب !

— البستان جميل ، وأجل منه صحبة الخلان والأحباب
فليطب وقت الورد ، فيه يطيب وقت الشاربين والشراب !
— وفى كل لحظة تتعطر مشام روحى بما تحمله الصبا من عبير
ولكن « أرباب الهوى » أنفاسهم دائماً محببة تستطاب
— ولقد عزمت الوردة على الرحيل قبلما تتفتح عن غلالتها
فنوح أيها البلبل فنواح أصحاب القلوب الجريحة مستطاب
— ولتكن لك البشرى أيها الطائر الجميل الصوت ... ففى طريق العشق
يستحسن لدى الحبيب نواح «القائمين بالأسحار» ويستطاب ! ... الخ

وهو فى هذه الدنيا الجميلة مشغول بسبحاته ولحظاته ، عن مواضعات المجتمع وزحمة الأطماع ومعترك الحياة . . . إنه مستهتر فى عشقه الصوفى أو الغزلى ، نشوان بخمره الالهية أو النواسية ، وليقل من شاء كيف شاء ، فهو خير عند نفسه وعند الله من المرائين المنافقين ومن الوعاظ الثقلاء !

— لقد انقضى الصيام وأقبل العيد(١) ، وارتفعت القلوب بالابتهال والضراعة
واحمرت الخمر فى حانوتها ، فاطلب الكأس بما تملك من قدرة واستطاعة ؟
— وانقضت نوبة « بائعى الزهد » ثقلاء الأرواح المنافقين !
وآن أوان الشراب والعربدة للشاربين والمعربدين
— وأى لوم على من يحتسى مثل هذه الخمر وهذا الشراب ؟
وأى عيب نعيبه عليه إذا فقد الوعى وأضاع الصواب ! ؟
— وشارب الخمر الذى لا رياء فيه ولا نفاق
خير من «بائع الزهد» الذى يكون فيه الرياء وضعف الأخلاق
— ولسنا نحن من المعربدين المرائين ولا من المصطنعين للرياء
وشاهدنا على هذه الحال هو « عالم السر والخفاء » . . . الخ

وفى غزلية ثانية يقول ، زاهدا فى المطامح والآراب :

— وقل لمن مضجعه فى النهاية قبضتان من التراب :
ماحاجتك إلى رفع الايوان إلى الأفلاك ؟

---

(١) يقول شوقى :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى الى مشتاق

وفى غزلية أخرى يقول متهكماً على الطموح وكل شىء إلى زوال :

— « لقد ذهبت عظمة « آصف »(١) ومركبه على الريح ومنطقه مع الطير
وضاعت جميعها ولم يتمتع بشىء منها !
— فلا تطر بجناحك وريشك وترتفع عن « الطريق » فالسهم المريش
يرتفع مدة فى الهواء ، ولكن سرعان ما يهبط إلى الأرض

هل كان حافظ متشائماً كما يبدو من هذه الأبيات الأخيرة ؟ يقول الدكتور عبد الوهاب عزام فى الجزء الثانى من كتاب « قصة الأدب فى العالم » صفحة ٥١١

« وحافظ يبين فى شعره عن انقباض واكتئاب وحزن ، ويعرب عما يمتحن به فى هذا العالم ، ويغلب عليه التشاؤم ؛ ولكنه يبين عن فرحه وسروره أحياناً ، وعن تهلله وإشراقه ، وتأميله وانبساطه ، كأنه برئ من مرض ، أو استراح من ألم ، أو ظفر بما يريد بعد عناء ، أو حم له بعد طول الفراق لقاء » .

والذى يقرأ غزليات حافظ قد يرى له أن يخالف الدكتور عزام فى تصويره لنفس حافظ فيراه — على عكس مايرى الحيام — كثير الابتسام قليل الانقباض ، ويرى التشاؤم فى حديثه عارضاً خفيفاً ، لاسمة أصيلة . وإنما يراه فى جميع أحواله هادئاً لطيفاً . ضحكته ابتسامة ، وصرخته آهة ، وهو برئ النفس من الحقد والألم جميعاً ، مشغول عن الحقد والألم بالسبحات الصوفية واللحظات الغزلية ، واستجلاء الحسن والجمال ، فى هذه وتلك ، وفى الغيب والعيان .

وهناك خلاف بين الدكتور عزام والدكتور إبراهيم أمين على تصوير أسلوب حافظ الشعرى فى لغته . فالدكتور عزام يقول :

« ولحافظ فى الشعر أسلوب دقيق جميل يشبه النغم الموسيقى المحكم ، جانست كل لفظة صاحبتها ، وأصابت كل كلمة دلالتها . ومعانيه بين التصريح والتلويح ، والظهور والخفاء تستغرق عناية القارئ وتستولى عليه فيتأملها حريصاً عليها معجباً بها . وقل من يساير حافظا فى إحكام السبك ، ودقة النسج ، وإجادة النظم ، فلا تجد فى أوزانه وقوافيه — على كثرة ما كنى ووري وجانس — تكلفاً أو اضطراباً أو فضولا » .

ثم يقول :

« وعابر ديوان حافظ كالسائر فى حديقة ورد ، تروعه الصور الكثيرة والألوان المختلفة ، ولكنها كلها ورد . فهو يعرض صوراً كثيرة لحقائق قليلة . أو هو كالمطرب يسمعك كثيراً من الأوزان والألحان والأنغام ، ولكنها لا تعدو حديث الحبيب فى جماله ووصله وهجره وبعده وقربه ورضاه وغضبه ، وكل ما سمعت من هذا معجب مطرب رائع ، وكأن كل قطعة — باحسان التعبير وإجادة التصوير — تتضمن معانى جديدة لم تتناولها قطعة قبلها » .

وهذا التصوير لأسلوب حافظ فى لغته يبدو — حتى لمن لا يعرفون مثلى هذه اللغة — أكثر انطباقاً ؛ لأنه يتفق مع السمات النفسية للشاعر ، ومع موضوعات فنه وطابعها الرقيق الجميل

---

(١) يضع آصف بن برخيا فى مكان سليمان .

الحلو . فلست أدرى من أين إذن جاء الدكتور إبراهيم أمين بهذا الوصف الآخر « لطريقة الأداء عند حافظ » . قال :

« كان شاعراً عاتيا ، فلم يكن يأبه لشيء ، ولم يكن يهتم بشيء . . . كان يعلم أن أقواله تفتن الجماهير ، ولكن ذلك لم يشغله إلا الى قدر يسير . وكان يعرف أن أشعاره تفتن الألباب ولكنه لم يكن يهتم بهذا الاعجاب ، بل كان يمضى فى طريقه كالجيش اللجب ، يطوى بيداء الحقب ، فى أناة أو صخب .

« وكان كالنهر العاتى ، يفيض على جنبات الوادى ، فيكتسح حطامه ، ويهدر ركامه . ويدفع ما أمامه ؛ جبار عنيد ، يشتد هديره ، ويزداد نذيره ، وهو ماض فى سبيله على نغماته الدائمة التى لا تهدأ ولا تسكن .

« وكان فناناً ، فكان يرضى نفسه قبل كل شيء ، تهتف به فيلبيها ، وتناديه فيجيبها ، وتحدثه فيقبل عليها ، ثم يستمع إلى نبراتها الحافتة التى لا تكاد تبين ، ويتحسس سكناتها الصامتة التى تخفى فى قراره المعين . فاذا فرغ إلى نفسه مرة أخرى ، رددها فى أسلوب مفصح مبين ، أو سجلها عليها كلمات معجزة تنحدر من عليين ، أو أعادها إلى نفسه ليؤكد لها ما جاشت به من قول مخلص أمين » .

وعلى ما فى هذا التصوير لطبيعة حافظ وطريقة أدائه من تناقض واضح بين بعضه وبعض واندفاع فى سجعات رنانة قد تفوت الدقة على الأداء ، فانها فى صميمها تخالف صورة حافظ وطبيعته التى يستشفها قارئ الغزليات . وهبنى مخطئاً فى هذا لأن النص الفارسى ليس فى متناول يدى ، فها هو ذا تصوير الدكتور عزام لأسلوب حافظ يؤيدنى . وأغلب الظن أن التوفيق هنا لم يحالف الدكتور إبراهيم أمين .

وأسلوب الترجمة ؟

ربما لم أكن صاحب حق فى نقده — ككل من لا يعرفون الفارسية — ولكن هذا لا يمنع من التعبير عن إحساسى بأن روح حافظ المشرقة اللطيفة ، كانت تخبو وتخنس فى بعض الأحيان ، ثم تبقى من وراء الألفاظ توصوص وتشير فى جهد إلى جوهرها اللطيف !

وقد نقل المترجم بعض الغزليات القليل منظوماً كلها منثوراً . فأحسن فى هذه الخطة . فالنظم باللغة العربية عسير محتاج إلى هبة خاصة ، ولعله يكون أعسر حين يراد منه نقل مثل هذه اللمحات الخفيفة السريعة ، التى تربطها روابط خفية دقيقة . وذلك يبدو عند مراجعة الغزليات التى نقلها نثراً ونظماً فهى فى النظم لا تكاد تبين ، وفيها بعد واضح عن حقيقتها البادية فى النثر قدر ما يستطيع .

ويجب أن أشهد بعد ذلك بسلامة لغة الترجمة فيما عدا أخطاء يسيرة ، لعلها من السهو فى الكتابة .

ولكم وددت أن أستغنى عن هذه الصفحة الأخيرة ، ليخلص للدكتور ابراهيم أمين ثنائى وشكرى بالنيابة عن قراء العربية . فما يليق — فى الواقع — أن يجزى صاحب هذا الفضل بغير الثناء المطلق والشكر الجزيل .

سير قطب